الفطرة .. والكون

للأستاذ : البهي الخولي

قد يقول بعضهم فى انكار أو عتب : ما بال القرآن يقحم فى مباحث الفلسفة ، والعلم ، والفكر ؟ ! ذلك ان من الاسس التى يعتمدها الغرب ضابطا للتفكير العلمى ، استبعاد النصوص الدينية جملة عن أفق العلم ، فلا يستشهد بها لصحة شىء منه ، ولا تجعل مصدرا لحقيقة من حقائقه ، ولا تتخذ قاعدة للتفريع فيه أو البناء ... عندهم أن لكل عالم أو مفكر أن يعتقد ما شاء فى الخالق .. له أن يجحده وله أن يؤمن به ، وليس له بحال أن يجعل لعقيدته والنصوص المتعلقة بها أثرا ما فى حياته العلمية ومنهجه العقلى ، فان امور العقيدة والدين لديهم — على أحسن التقدير — أمور وجدانية ترجع الى الذوق الباطن ، والتصديق القلبى والوحى الالهى اذا اعتقدوا ان الدين وحى من السماء ، أما امور العلم فترجع الى حكم الواقع المحس الذى تمحصه الملاحظة والتجربة وتضبطه معايير العقل بمختلف القواعد والأقيسة الرياضية .. ولا يستقيم شأن الانسان فى الدين والعلم الا ان يأخذ كلا بدستوره فى التحصيل والتعاطى هذا بالقلب والالهام وذاك بمعايير الفكر وفيصل التجربة .

وبيننا كثيرون أخذوا هذا الأخذ بحسن نية أو بمحض التبعية العقلية للغرب ، فقضايا الدين لديهم ليست من قضايا الفكر ولا حقائق العلم التى تناقش بها شئون الواقع وتحرر بها أوضاع الحياة ، ومنهم من صرح بأن موضوعات الدين وبرامجه الاذاعية ليست برامج ثقافية ، انما هى موضوعات لطمأنينة النفس وارضاء الوجدان العام فاذا رأوا عنوانا يتحدث عن « القرآن ومنهج المعرفة — مثلا انغضوا رءوسهم وزموا شفاههم وقالوا — ما للقرآن نقحمه فى

أخص موضوعات الفلسفة والفكر وربما طووا المجلة أو طووا — على الاقل صفحات المقال لأنه يقوم على فكرة خاطئة تستبيح الخلط بين ما هو من شئون الوجدان وما هو من شئون المنطق » .

ونحن نعذر الغرب — الى حد ما — اذ جعل للدين هذا المفهوم الذى يفصل بين الدين والحياة ويعزل العقيدة عن مجال العقل ، فان لذلك أسبابه من سلوك رجال الدين المسيحى وتفسير نصوصه فى القرون الوسطى ، ونعذر الى حد ما — أيضا — اولئك الذين تابعوهم منا على ذلك المفهوم فان له — أيضا — أسبابه التى لا نطيل بذكرها ، ونعلن لهؤلاء وأولئك أن المعنى الذى فهموه للدين هو تلفيق شائه لا يمثل حقيقة كونية ولم يرده الله لدين من الأديان ، انما اراد الله دينا هو حقيقة علمية يشهدها العقل فى صفحات الكون المحس كما يشهد أن الواحد نصف الاثنين وأن الكل أكبر من الجزء .. اراد الله دينا هو حصيلة نظر عقلى حر فى حقائق الكون المادى غير متأثر بأى ايحاء ، أو تخيل أو تقليد موروث .. فاذا كانت حصيلة النظر فى آفاق الكون تعتبر فى ضوابط المعرفة وموازينها (علما) فهذه الحصيلة ذاتها هى مفهوم الدين .. أى هى علم ودين ما .. وذلك معنى سنعرض لبيانه ان شاء الله فى موضعه .

فاذا ذكرنا القرآن بصدد المعرفة فانا نعنى كتابا نمطا غير الذى تمثلوه للكتب الدينية ، نعنى كتابا يتضمن مناهج سديدة فطرية للنظر فى الكون ، ويجعل حصيلة ذلك النظر قوام علم الانسان وجماع مبادئه وقيمه ، وهو فى تقريره لتلك المناهج لايعنت الفطرة باقحام الاوامر وسوقها الى مالا تعهد ، بل ينبه معايير الوعى والادراك فيها أن تنظر فيما حولها ، ولا يرضى بتة بغير ما تقبل وتأتى به تلك الفطرة .. فلينظروا معنا فيما يعرض ذلك الكتاب الحكيم ، فانهم موشكون أن يروا النمط الأصح لمسلك الفكر الى المعرفة ، وهو نمط يحسم الاخطاء ويبلغ اليقين الذى تقر به الافئدة وتسعد الضمائر .

فالقرآن فى هذا الباب انما هو ترجمة مافى الفطرة ، يقرر صلتها بالكون ، وما تتضمن من ملكات النظر وكيفيته .. فلو أن انسانا — لايعرف القرآن — أقام فطرته على سمتها فى نظره الى الكون ، وانعم النظر وتحليل الملاحظة ، وسجل ماينتهى اليه جهد التفكير والتفاعل مع الكون لوجدنا حصيلة تتحلى بنفس الخصائص التى يقررها القرآن مع فارق أساسى ظاهر هو الشمول والاحاطة فى تقرير القرآن مع صدق الخصائص وعمقها .. وهذا هو النهج الذى اتبعته فى هذا المبحث فانى عولت على الفطرة وواقع تفاعلها مع الكون ، واطلقت العقل على سجيته فألفيته فى أكثر ما كتبت ينتهى بى الى مفهوم آية قرآنية لم تكن بخلدى حين بدء الكتابة ، بحيث لا يشرق على نصها الا وقد تمهد العقل لمفهومها فيظن العقل لقوة وضوح المعنى فى البديهة كأن الآية لا تتضمن ناموسا باقيا أو حقيقة خطيرة تستأهل التقرير .

تماثل الكون والفطرة

وقد كتب الباحثون كثيرا عن بداءة الانسان وتطور صلته بالكون منذ وعى نفسه الى اليوم .. وكتبوا على الاخص فى صحبته العقلية له ، او صلته العقلية به ، فبينوا كيف كانت ساذجة بادىء بدء لاتحسن التعليل والحكم على ماترى من مشاهد وظواهر كونية خطيرة كمشاهد الشمس والقمر والسماء والنجوم .. وكظواهر الرعد والبرق والسحب والمطر والسيل ، اذ كان يسأل

نفسه فى دهشـــة ما هذا ؟ وكيف ؟ ولم ؟ أو من أحداثه ؟ فلا يجد فى خزانة تجاربه وملاحظاته ما يقدم له الحكم الصادق والتعليل القويم لما يرى .

وتمضى الحقب وتتتابع الدهور ، ويأخذ على ضوء ما حصل من تجربة وما توالى من ملاحظات فى تعديل احكامه ومراجعة ماله من تعليل حتى بلغ اليوم شأوا يعتد به فى ذلك .. ولسنا بصدد احصاء ما كان له من خطأ وصواب .. وخرافة وعلم وحمق وحكمة ، ولكنا نلحظ فى حصيلة ذلك الماضى وما انتهى اليه الآن ان بين الكون وفطرة الانسان فطرته الحسية وفطرته النفســية وفطرته العقلية علاقة تواؤم أو توافق تلفت النظر ومن ظواهر ذلك التوافق ما يلى :

١ — الملاءمة التى يلبى بهــا الكون ضرورات الانســان واحتياجاته فقد صحب الانسان الكون منذ بداءته بصفحة بيضاء خالية من التجربة فقادته حواسه ومعدته الى التفاعل معه فوجد انه كلما احتاج الى طعام أو شراب أو نحوهما من مقومات حياته قدمه له الكون أى وجده أمامه ميسرا حاضرا موافقا لفطرته وحاجته .

وهذا ضرب من التوافق بديهى وخطير معا ، بديهى لانه واضح وضوحا لا يكاد الانسان يلتفت اليه « ومن شدة الظهور الخفاء » كما يقول البوصيرى وخطير لانه أساس حياة الانسان الحسية فى الأرض . وقد كان من وضوح هذا التوافق اننا شغلنا عن التفكير فى خطورته وعجائبه حتى اذا رحل الانسان الى القمر لم يرحل اليه الا ومعه طعامه وشرابه ، بل لم يرحل اليه الا ومعه هواؤه الذى يتنفسه ، وكل من تتبع أنباء رحلات الفضاء كان يعلم أنه لو ثقبت ملابس أحد رجال الرحلة لفقد حيــاته ولا بد ، لأن هواء القمر ليس له التركيب الذى يتلاءم به مع كيان الانسان الحسى .

ومن هنا ندرك أن قوله تعالى (ياأيها الناس كلوا مما فى الأرض حــلالا طيبا) و (كلوا واشربوا من رزق الله) لا يقتصر فحواه على أنه مجرد دعوة الى أن نأكل ونشرب مما فى الأرض لأن ضرورة الانسان تدعوه بل تضطره الى ذلك دون انتظار لصدور الاذن أو الأمر به ، انما يتضمن القول الكريم — الى معنى الدعوة — حقائق هى سنن من سنن الله ، يدخل فى غرضنا منها الآن اثنتان : الاولى تقرير افتقار حياة الانسان أى افتقار فطرته الحسية الى مافى الارض من عناصر ، وتلك حقيقة كونية خاصة بنا لا جدال فيها ، والثانية تقرير الملاءمة بين عناصر الأرض وفطرة الانسان وهى سنة كونية أخرى ..

وفى كل ذلك للانسان آفاق من الاعتبار والعلم على مثل ما يقول تعالى (كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى) ولسنا بصدد الاستطراد الى حديث تلك الافاق فسيأتى ان شاء الله فى مناســبته ، والذى يعنينا فى مقامنا هذا أن ما قررناه هو ضرب من الملاءمة أو التماثل بين الانسان والكون لا مرية فيه .

٢ — وفى الكون ضروب من الثروات كالحديد والنحاس والذهب والفضة وغيرها من الفلزات التى ليست بطعام ولا شراب ولا تدعو اليها ضرورات البدن الحيوية ، اذ أن أى حيوان انما يعيش دون حاجة الى حديد أو معدن ، بل دون أن يدرى ما الحديد ولا المعدن ، ولكنا ندرك فى الوقت نفسه أن تلك المعادن تدخل فى حياتنا دخولا عمليا فلا نجد ظرفا من ظروف حياتنا المختلفة الا ولها فيه دور يتطلبها ، (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) ذلك ان للانســـان فطرة عدا فطرة الحيوان التى قدمنا فى الفقرة الســابقة هى فطرة التحضر

والتمدن التى لا تنشد طعاما ولا شرابا بل تنبعث باحتياجات لا تجد سدادها الا فى مكونات تلك الأرض من معدن وحجارة ونحوهما .

والمعروف أن الانسان القديم حين دعاه الخوف الى التجمع ليدرأ عن نفسه غائلة الضوارى ظل له احساسه بفرديته التى يسمونها : أل (أنا) فان التجمع كان مطلوبا لحماية أل (أنا) لا لتذوب فيه الفردية وتتلاشى ، وما لبث بالتجمع أن وجد نزوعا فطريا ينبثق من تلك الفردية فى عمق ينشد التستر والانفراد بمسكن مستقل ، وسنعود لشيء من تحليل ذلك بعد قليل فى هذا المقال ، والذى يعنينا هنا أن هذا النزوع الفطرى كان بمثابة نداء باطنى ملح فى طلب السكن المستقل ، ولم يكن باستطاعة الانسان أن يتجاهله فتحرك فى بيئة الجبال يطلب الكن ، واقبل فى بيئة البدو يتخذ من الجلود والأوبار خباءه ، وفى بيئة الادغال يتخذ كوخه ، وفى الريف وجد ما ينشد فى مادة الأرض حجارتها وطينها ونحوها وفى هذا المعنى الدقيق الذى يمثل البذرة الأولى لحضارة الانسان يقول تعالى : « والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم » ، « والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا » .

وإلحاح هذا الباعث وشدة دأبه على الحفز والاستحثاث لطلب البيت المستقل يذكرنا بالحاح باعث المعدة لطلب القوت ، كأن الباعث الاول (معدة نفسية) الى جانب المعدة المحسة ، فهما دائبتان على حفز الانسان للاتصال بالكون الخارجى ، معدة الحس تطلب القوت من مادة ذلك الكون ، لتحصيل الطاقة التى بها سعى البدن وممارسة نشاطه على وجه الأرض ، والمعدة الاخرى تطلب (البيت) من مادة الكون نفسه اذ هو الحضانة الضرورية لخصائص حضارة الانسان ، فتكون المعانى والطاقة النبيلة التى تقوم بها الحضارة وتزدان الحياة .

ولسنا نتحدث عن دور البيت بل نتحدث عنه باعتباره أمرا مطلوبا تنشده الفطرة وتلح فى طلبه فلا تسكن الا أن ينبعث الانسان ويحقق لها من مادة الأرض ما تريد ، ويعنينا من ذلك ان كوننا الأرضى واجه مطلب الانسان فقدم له من مادته ما يلائم ضرورته ، وهو ضرب من التماثل أو المواءمة لا مرية فيه .

٣ — وفى الكون ما نسميه (قوانين الطبيعة) وهى حقائق مغلقة دون الحواس ، ولا تجد مفاتحها فى ذهن حيوان أو معدن أو نبات ، انما تجدها فى ذهن الانسان وحده ، ومعنى ذلك أن لذهن الانسان خاصية تلائم نظام تلك القوانين ، فاذا التقت تلك الخاصية بتلك القوانين على السنة العلمية المقررة أو المقدرة لالتقائها أفضت القوانين للذهن بسر تسخيرها ، وكان للانسان منها كل منفعة مقدورة ممكنة ، فالانسان بهذا لم يسخر القوانين ، ولم يوجدها كما يتبادر لذوى النظر السطحى الذين يزعمون أن الانسان قهر الطبيعة وسخر قوانينها ، وتحدى الكون فظهر عليه ، فان الانسان لا يملك أية قدرة عقلية او بدنية لتسخير قانون مافى غير ماقدر له ، أى لاقدرة له بتة على اخراج نواميس الكون عن طبيعتها ليجعلها كما يشاء ، فالذى يدل عليه النظر الصادق النافذ أن نواميس الكون سويت على ما أراد خالقها ، وقد سويت على الوضع الذى يحقق التطابق بين بعضها وبعض « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » ومن تلك النواميس نظام عقل الانسان ، وبهذا التطابق بين الجميع تعمل كافة النواميس فى تناسق وتكامل ، فلا يكون النظام الذى يتفق مع مصلحة كل كائن بحسب

مكانه فى الكون ودرجته فى سلم الحياة وكل الكائنات فى ذلك سواء الا أن خاصية الرياضة فى ذهن الانسان ـ أى خاصية فهم تقديرات النواميس لا تهتدى الى نظام تطابقها الا بالتجربة ودقة الملاحظة ، فاذا اهتدت تيسرت للانسان منها منفعة ، وقيل انه سخر الطبيعة وهو خطأ قدمنا صوابه ، فالطبيعة قد خلقت مسخرة ميسرة لما أريد لها ، والمصالح انما هى ثمرة التطابق ومظهره ،، واذا كان التطابق يعنى معرفة التقديرات الرياضية التى تعمل بها كافة قوانين الطبيعة عملها الدائب ، فيكيف الانسان أسلوب سعيه فى تحقيق منافعه ومصالحه على قواعد الاستفادة من تلك القوانين ، اذا كان التطابق يعنى ذلك فان مرادنا هو ذلك التماثل بين عقل الانسان ونظام الكون .. وهو ضرب ثالث من الملاءمة والتوافق لا مرية فيه .

تلك ظواهر ثلاث قائمة مسلمة ، لا شك فى قيامها وتسليمها ، ويعنينا منها أنها دليل حاسم على ما بين فطرة الانسان ونظام الكون من تواؤم وتطابق ، بل ان الامر على ماهو واضح فوق مرتبة الدليل الحاسم ، فان ماقدمنا انما هو ثمرة الملاءمة والتطابق يراها العقل ملحقة بأصلها فى يقين لا شبهة فيه بتة ، والمرء بازاء رؤيته العقلية لتلك الثمرة لا يجد فى نفسه أى مجال لالتماس دليل يثبت له تلك الصلة ، فان التطابق لو لم يكن أمرا مشتركا بين الكائنات وسنة جامعة لها لرفض الجسم أى طعام يتناوله الانسان بل لما كان ثمة طعام قط ، ولما تهيأ للانسان ادراك أى قانون طبيعى ، ولما نشأت له أى حاجة الى حديد أو نحوه ، ولكانت صلتنا بالفلزات عامة كصلة أى حيوان أو دابة فى البر والبحر والجو ، ونخرج من هذا بأن التطابق بين نظام فطرة الانسان ونواميس الكون وحقائقه ليس من قبيل الدعوى أو القضية ، انما هو حقيقة مشهودة بآثارها لمن اعتادوا أن يدركوا بقولهم حقائق الكون الحسية والمعنوية .

الفطرة رائدة الى التواؤم

وواضح مما تقدم أن فطرة الانسان ـ فطرته الحسية والنفسية والعقلية ـ كانت هى رائدة جهوده فيما حقق من تطابق بينه وبين الكون .

١ ـ فان حواس الانسان ومعدته قادته ـ على ما قدمنا ـ الى التفاعل مع الكون ، فوجد أنه كلما احتاج الى طعام أو شراب قدمه له : وتقرير ذلك من حيث طبيعة الجسم أن الانسان يحس الجوع فيبعثه الى أن ينهض باحثا عن القوت أو ساعيا اليه ، فاذا أدرك حاجته منه سكن عنه الجوع ، ثم يتقلب فى الأرض تقلبه ويكد ما يكد ، فيفقد الجسم بما يبذل من جهد وحركة الكثير من خلاياه ـ أو الكثير من لبنات بنائه فيتخلخل ويفقد توازنه ويحتاج الى عملية تعويض تعيد اليه ما فقد من بنائه ، ويكون (الاحساس بالجوع) هو الناقوس الذى ينبه الانسان ويدعوه الى عملية التعويض ـ أى الى وجبة طعام ـ تقيم الصلب على سمته الطبيعى .. وبنداء هذا الداعى ـ الجوع ـ ينهض الانسان باحثا عن الطعام أو ساعيا اليه .. وهكذا ... وذلك ما يسمونه غريزة « المحافظة على الذات » .

ونلاحظ فى تقرير ذلك أن المعدة لا تفقد شيئا من بنيتها بسبب سعى الانسان وكدحه اليومى ، انما الذى يفقد هو الدم ، وهو الذى يضار ويتخلخل ، ويحصل بتلك الخلخلة وما احترق من الخلايا أن يحس الانسان (بالتعب) وذلك منطق تركيب بنية البدن ، فاذا أصاب الانسان حظا من الراحة قد يذهب عنه احساسه بالتعب ، ولكن يظل الجسم تنقصه (عملية التعويض) فاذا لم يكن هناك ناقوس

فطرى يسوقه سوقا الى وجبة الطعام ، فان الانسان لا يتنبه لشىء الا الى أن جسمه فى ضمور وذبول مستمر .. حتى يقضى .. فشاءت حكمة الخالق أن ينبعث هذا (الاحساس الصائح) الجوع من جوف المعدة ، العضو الذى لم يمسه نصب ولم يفقد من بنائه خلية واحدة مع التساهل بعض الشىء فى المصطلحات الطبية ، فالاحساس بالجوع هو قوام غريزة (المحافظة على الذات) .. وهو بما قدمنا أمر فطرى مركوز فى النفس لا ينفك عنها ، وهو اذ يؤدى للانسان أخطر ما يحفظ كيانه الحسى ، **يعمل عمله الدائب القوى فى سوقه الى التواؤم مع الكون .**

هذا وقد بلغ الانسان فى هذا الضرب من التواؤم أقصى غايته اذ لم يبق فى الأرض عنصر واحد تدعو اليه المحافظة على الذات — أى تتعلق به حياة البدن — الا أخذ حظه منه منذ أقدم العصور من هواء وماء وخضر وحب وفاكهة وبقل ونحوه .. وما نشهد للانسان من جهود فى هذا السبيل انما هو اعادة وتكرير لمطالب (المحافظة على الذات) وليس من قبيل الاضافة التى تحقق بها غريزة المحافظة على الذات تطابقا جديدا مع عناصر لم تكن تطابقت معها .

على أن الانسان منذ أقدم عصور تحضره نسى باعث المحافظة على الذات ، وتولاه نهم الى الترف ومضاعفة الاحساس باللذة ، وتنوع صنوفها ، والحصول على أكبر قدر ممكن منها : فلا يأكل أو يشرب ليؤدى لبدنه حقه ، بل استجابة لما يصبو اليه من لذات .. كل ذلك فى طموح يزيد الجهد والتوسع فى الانتاج مع ابتكار المثيرات والأخلاط التى تشهى الطعام وتثير الرغبة اليه .

ولا شك أن اللذة أمر زائد على ماتطلبه غريزة المحافظة على الذات ، فان الاغراق فيها والاستكثار من صنوفها ليس عنصرا غذائيا يتجدد به للجسم ما فقد من خلاياه ، فهو بذلك أمر دخيل على طبيعة ونواميس صحته ، يرهقه وينهكه ، الى مايلحق بالنفس من تلف وبطر .. فاذا عرضناه على منطق السنن الفيناه طاقة أو جهدا خاسرا لا مكان له فى الكون ، لا يأوى الى سنة ولا يتطابق مع شىء ..

ولا جرم أن نبذ القرآن هذه الآفة — آفة الترف — وجعلها من ظواهر انحلال الحضارات والأمم على ما سيأتى فى مكانه .

أما الطموح الذى أشرنا اليه فهو قوة مباركة تحدو الانسان الى المثل الأعلى فى كل شأنه (وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) ولكن استيلاء عوامل الغفلة على الانسان ينسيه مثله الأعلى ، فتضل تلك القوة غايتها ، وسنعرض لذلك ان شاء الله فى مناسبته ، وما أردنا بالاشارة اليه الا أن نفرق بين ما هو حق وما هو باطل فى الميدان الذى تصطرع فيه قوى الانسان المختلفة ليعرف فضل غريزة المحافظة على الذات فيما تؤدى اليه من مصلحة وفيما تحدوه اليه من تطابق مع الكون ..

٢ — والتجمع بالنسبة للانسان كان وسيلة يدفع بها عن ذاته مع بقاء تلك الذات على ما لها من معالم الفردية ، وخصائص الأنانية .. وفى ظل التجمع وحماه بدأ يحس نزوعا من أعماق ذاته ينشد التستر فى بعض أمره .. بدأ يحس لنظرات الناس اليه فى بعض أمره حسابا غير حساب تعاونهم معه فى جلب صيد أو مغالبة الضوارى ، بدأ يحس لهذه النظرات انقباضا يحمله على ستر

بعض أعضائه واقامة ركن مستقل لمواراة بعض شأنه ، وازاء الحاح هذا الاحساس وقوة دفعه وتوجيهه أقام الانسان (البيت) وسكنت به نفسه .

ولم يكن ذلك عرفا أو وضعا ارتضته الجماعة ، فان الاعراف قواعد محلية تنشأ ببواعث خاصة وتختلف من بيئة الى أخرى ، على حين نرى تلك الظاهرة — ظاهرة اتخاذ البيت — عامة فى كل بيئات الانسان التى تسنى له فيها التجمع ، حتى لنرى أهل الريف والبدو وسكان الجبال والادغال تأخذهم داعية ذلك النزوع فيتخذون ذلك الكن ، فمنهم من وجد فى الجبال كنه ، وفى الادغال كوخه ، وفى البدو — من جلود الانعام — خباءه ، وفى مادة الريف من الطين أو اللبن مأواه ، على ما يعم القرآن بقوله الذى قدمنا (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم) .. (والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا) .. واذا كان ذلك عاما فى كل بيئة فقد مضى عليه شأن الافراد فى كل عصر .

وكذلك لم يكن عامل المناخ هو الذى حفز الانسان أساسا لاتخاذ (البيت) ، فقد رأينا (البيوت) فى بعض البيئات ولا سقف لها فقصارى أصحابها منها أن تكنهم عمالا يريدون من نظرات التطفل والاستكناه (١) ذلك الى أن داعى التستر فى بيوت البدو أوفر وضوحا من دواعى اتقاء البرد والريح وغيرهما من عوارض الجو فى الليل والنهار (٢) .

ومن الملاحظ أن الانسان فى بعض المناطق يكتفى بستر عورته مع انها أقل اعضاء بدنه تأثرا بحرارة الجو ، هذا وقد صحب الانسان عوامل الجو دهورا طويلة قبل مرحلة التجمع فلم تثره الى ستر عورة او اتخاذ بيت خاص ، انما كان ذلك بعد التجمع فى شأن لسنا بازاء بيانه .

واذا لم يكن اتخاذ البيت من قبيل العرف فى الجماعة ولا لاتقاء عوارض الجو ، وهو مع ذلك عام لجميع الافراد فى كل بيئة وجيل فهو أمر ذاتى لا عرضى يرجع الى فطرة النوع نفسه .

ويلاحظ أن باعث جمع القوت فى الفقرة السابقة — الموسومة برقم ١ — باعث حسى حيوانى ، اذ المراد بالمحافظة على الذات المحافظة على حياة البدن ، أما الباعث هنا فلا يطلب قوتا وليس هو من البواعث التى تنبثق من فطرة المحافظة على الذات — رأس غرائز الانسان — فليس هو جمعا لعرض ، أو منافسة عليه ، أو تصديا لقرن ، أو طلبا لسيادة ..

وقد يذكر هنا داعى (الفردية الاقتصادية) الذى يجنح بالفرد ليحوز الى جانبه حصيلة عمله فيكون جمعها فى (حيز خاص) تحقيقا لفرديته وارضاء لأنانيته وتوكيدا لشخصيته وارادته ، ويكون ذلك تفسيرا اقتصاديا لاتخاذ البيت ، وذلك مردود لأن من كان رزقه فى الغابة أو مذخورا له فى صيد البحر ، يحصل عليه يوما بيوم دون ضرورة لحيز لم يغنه ذلك عن اتخاذ البيت .

وكذلك الكثيرون الذين لا تزيد حصيلة عملهم عن كفاية قوتهم اليومى ، فانهم قد اتخذوا البيت مع عدم الحافز الاقتصادى اليه ، ذلك الى أن (للفردية الاقتصادية) وزنا آخر يجردها من شوائبها وتعقيداتها — سنعرض له ان شاء الله فى حينه — وقصارى ما تنتهى اليه تلك الفردية بعد تجريد جوهرها من عقابيل الانانية ، وأوهامها الدخيلة ، انها عامل عمارة واحياء ، وليست من مقاصد الطبيعة فى الحيازة والكنز .. ولما انحرف الانسان عن مثله الأعلى باستيلاء

الغفلة والعوامل الدخيلة انحرف معه طموحه وصادف اتجاهه نحو الحيازة نفس اتجاه عاملنا الأدبى الملح فى اتخاذ البيت ..

واذا فباعث اتخاذ البيت لا ينبثق من فطرة الحس فى الانسان .

واذا كان هذا الحافز فطرة غير حسية ، وهو فى الوقت نفسه فطرة فى كافة أفراد النوع فهو فطرة معنوية أو روحيـــة أو أدبية ، ولولا أثرهـــا العميق الحافز الى التستر فى دأب لا يسكن الا أن يتخذ الانسان بيته لما أحس لها أحد وجودا ، وأول ما قص القرآن من تجارب الانسان فى تلك الفطرة النازعة الى النيل أن آدم وزوجه عليهما السلام لمـــا أكلا من الشجرة وبدت لهما سوءاتها أدركهما وازعهما ، أو داعيهما النبيل ، وطفقا يخصـــفان عليهما من ورق الجنة سترا لمـــا بدا منهما ..

ولقد سمى النزوع الى جمع القوت (غريزة المحافظة على الذات) لأن تلك المحافظة هى الغاية من الطعام ، وامضاء لهذا المنطق نسمى نزوع النفس الى اتخاذ البيت (غريزة السكن) ، اذ بهذا البيت تسكن النفس بســـتر ما يؤذيها تعرضه للأنظار ، وقد سماه الله (ســـكنا) بقوله : (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا) ، وليس الشأن فى النص الكريم شأن مبتدأ وخبر انما هو نص على قانون من فطرة الانسان ، لا ينفك عنها ، وهو سكن نفسى لاحسى ، لا يتحقق الا أن يحتوىالانسان (بيت) خاصبه ، ومما له دلالة على (فطرية) هذاالقانون فىالنفس أن الانسان اذا نزل (فندقا) أحس — بامتداد الاقامة — نزوعا الى بيته الخاص مهما يكن بالفندق من أسباب الراحة وجودة الطعام والخدمة .

واذ تقرر أن تلك غريزة تبعث الانســـان على التماس مطلب له من مادة الأرض ، وقد وجـــدت فى تلك المادة ما يلائم المطلب ، فذلك شـــاهد لتلك الفطرة بأنها قائد الانسان أو رائده الى التطابق مع الكون .

ويبقى أن نسأل : هل أتمت غريزة السكن دورها فى تحقيق التطابق أو أن ثمت مدى عليهـــا أن تبلغـــه ؟.. والاجابة ميسورة اذا ذكرنا أن تلك الغريزة لا تنشد سوى ما يكنها عن نظرات الفضول ، وقد تحقق ذلك من أول الأمر بأيسر المواد .. بخباء البادية ، وكوخ الأدغال ، وبالحجارة الساذجة أو الطين أو اللبن أو بهن جميعا فى الريف ، وما زاد عن ذلك بالاتساع وكثرة الحجرات أو التعالى فى البنيان ، فليس من مطلب الفطرة وهو فوق ما تدعو اليه الضرورة ، فمكانه هنا هو مكان التزيد فى الأطعمة من الترف وتزينها بالنسبة لغريزة المحافظة على الذات ، وقد كان بيت النبى محمد — عليه الصلاة والسلام — حجرة بســـيطة قائمة بالجريد الذى يشـــده الطين والشعر بعضـــه الى بعض ، فليس التعالى والتوسع والغلو فى الزخرف والأثاث ونحوه الا أثر الاستغراق فى شهوات المظهر وفتنة حاسة النظر عما جعلت له ..

ويجب أن نفرق بين ذلك الغلو فى اتخاذ البيت وبين واجب العمارة الذى ألقى على الانسان بقوله تعالى (هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها) أى طلب اليكم عمارتها بالزرع والاحياء ، وبناء المدارس والمستشفيات والمصـــانع ونحوها من المنشـــآت النافعة ، ولذا نعى الله على قوم مجاوزتهم للحكمة فى البنيان بقوله : (أتبنون بكل ريع آية تبعثون) ، واعتد ذلك من مظاهر انحلال الأمم وذهاب الحضارات ، وسنعرض له فى موضعه من البحث .

فثمت عمارة دعى اليها الانسان وأهل لها بملكة فى الذهن ، وثمت مطالب غريزة السكن التى لا تنشـــد سوى مجرد بيت ،، ويجب أن نفرق بين هذين

وبين مظاهر الطموح الذى ضل سبيله ، فجاوز بجهود الانسان حدا الحكمة والضرورة فى المطعم والمسكن الى عبث يوبق النفس والمال والمجتمع .

ونخلص مما تقدم بأن غريزة السكن قد أدركت غايتها من تطابق الانسان مع الكون ، منذ استخلصت من مادته الطبيعية حاجتها الى بيت يكن على صورة أولية ، وأن جهود الانسان فيما وراء ذلك لا تحقق جديدا من التطابق فى بابها لأنها اما عبث ذاهب الى خسر ، واما عمارة سيأتى نبؤها على ما قدمنا ..

٣ ــ وكان ما حقق الانسان من مواءمة عقلية بينه وبين نواميس الكون ثمرة فطرة حافزة رائدة ، انبثقت فى الانسان وصحبته فى مدارج تطوره منذ وعى نفسه الى اليوم ، اذ كانت تلك الفطرة تستشرف لكل ما يثير اهتمامها من ظاهرة أو حدث أو كائن ، محاولة أن تعرف ماهيته ، أو كيفيته ، أو علته .. لم تكن تملك أن تنظر السماء والقمر والنجوم والشمس فى غير اهتمام وتساؤل ، وما من شك فى أن ظاهرات البرق والرعد والعواصف والسحب والمطر وارتفاع مد البحر مثلا قد أثارتها فانبعثت تسأل ما هذا ؟! كيف كان ؟! لم ، أو من أحدثه ؟! وكانت فى كل ذلك تثير العقل للبحث والكشف عن المراد ، وكان العقل خلال هذا المدى الطويل كثيرا ما يعود من بحثه باجتهاد خاطىء أو وهم وقع له على غير أساس علمى .. وقلما كان يصيب ..

ولا يعنينا ما كان للعقل فى ذلك من خطأ وصواب ، وخرافة علم وكذلك لايعنينا لم كان الخطأ أو لم كان الصواب ، انما يعنينا شأن تلك الفطرة المستشرفة التى تتساءل فتبعث العقل ليعرف ما تسأل عنه .. ان هذا التساؤل يمثل ولا بد رغبة نازعة الى المعرفة أو الى التعلم ، ومن البديهى أن يسبق التساؤل ادراك الحواس لشىء يثير السؤال ، ظاهرة أو حدث أو كائن ، فاذا حصل ذلك الشىء فى وعى الانسان ، وكان غير معروف الكنه أو الكيفية أو العلة ــ استشرفت تلك الفطرة فطرة التعلم الى معرفة ما تجهل ، فادراك الحواس لشىء ما أمر ضرورى لحصول ذلك الشىء فى وعى الانسان ، ثم يكون الاستشراف للمعرفة والتساؤل ويكون انبعاث العقل للملاحظة والتجربة والموازنة والكشف .

وتلك فطرة فى كل آدمى بلا جدال ودون استثناء ، وهى جديرة أن تسمى (فطرة المعرفة) ، ولكن أجدر من ذلك أن تسمى (فطرة التعلم) ، ففى كلمة (التعلم) معنى ايجابى ، و دلالة على جهد ذاتى ، ينشد الكشف عما لا يعلم الانسان ، وذلك نفسه هو شأن تلك الفطرة ، على أننا ننظر فى ذلك الاختيار الى قوله تعالى فى أول ما نزل به الوحى « علم الانسان ما لم يعلم » فالتعليم هنا ليس تعليم تفاصيل الشرائع وأصولها ، وليس تعليم كائنات الطبيعة عناصرها وخواصها وقوانينها ، وليس تعليم السنن الانسانية الخاصة بتقويم الانسان ، وما بذلك التقويم من عجائب الملكات ، وقوانين الايجاب ، وحقائق السلب ، وما له فى مجتمعه من نواميس الصلاح والترابط أو الفساد والانحلال . التعليم هنا لا يراد به قطعا شىء من ذلك لأنه حين نزول النص الكريم (علم الانسان ما لم يعلم) لم يكن للانسان علم بما قدمنا أو نحوه ، واذ هو تعالى صادق أتم الصدق وأكمله ، فالنص الكريم يتضمن اخبارا بخصوصية تكوينية ثبت بها فى الانسان ملكات التعلم ، واستعداداته التى تجعله طلعة دائم الاستشراف لمعرفة ما لم يعلم ، ويؤنسنا فى هذا قوله تعالى (وعلم آدم الاسماء كلها) ، فان التأمل فى تاريخ الانسان ، وتدرجه فى المعرفة مع الاطلاع على ما لأئمة المفسرين من قول فى ذلك ، يوجه العقل الى أن هذا التعليم ليس

مرادا به أنه تعالى علم آدم كل علم كان وكائن وسيكون بكل لغة كانت وكائنة وستكون ، فكان عليه السلام يعلم قوانين الطبيعة فى الفلك والكيمياء وتسخير المـاء والهواء والمغناطيس والكهرباء والرياضة البحتة ونظرية النسبية والذرة ومحتوياتها ونحوه مما هو معروف الى ما يجد الانسان فى معرفته وكشف اللثام عنه ، ولسنا نستبعد ذلك على قدرة الله ، ولكنا نقوله لأن الاليق بحكمة الله أن يعلمه — فعلا — ما ينظم صلته بواقعه ، وتتحقق به المصلحة ، أما أن يعلمه ذلك كله كما يعرفه العلماء الآن وكما سيعلمونه فيما بعد ليكون معطلا فى ذهنه لا يطبق منه شيئا فى حياته ولا يكون له أثر فى انتفاع أهله وبنيه به ، فهو مناف للحكمة على ما علمنا من سنته تعالى ، اذ لا يجلى الشىء الا حين تتهيأ الاسباب للانتفاع به ومعرفة حكمته ، انما نذهب فى هذا التعليم الى ما ذهبنا فى قوله تعالى (علم الانسان ما لم يعلم) ..

ونخرج من هذا بأن أجدر ما تسمى به تلك الفطرة هو (فطرة التعلم) لطابقته لغويا لواقع الانسان فى المعرفة ولورود الوحى به .

واذ تقرر من فطرة التعلم أنها نازعة أبدا الى التساؤل والاستشراف ، سائقة الانسان أو متنقلة به من جهل الى معرفة ، والمعرفة هى الأمر الحتمى للتطابق بين نظام عقل الانســـان وقوانين الكون — فان معناه أن فطرة التعلم كانت رائدة الانسان فيما حقق من تطابق .

وقد سألنا فى شأن غريزتى (المحافظة على الذات) و (الســكن) هل ادركت كل منهما تمام دورها فى التطابق ، وتبين من المناقشـــة أن كلا منهما أدركت الغاية من ذلك ، ومن الطبيعى أن نسأل هنا السؤال نفسه : هل حققت فطرة التعلم غايتها ؟ أى هل حققت دورها فى التطابق العقلى بين الانســـان والكون ؟

ولكى يتهيأ الذهن للاجابة عن هذا نذكر .

ا — أن صفحة الكون الطبيعى كله فى الأرض والســـماء بما حوت من كائنات ونواميس هى مجال نشاط تلك الفطرة ، وذلك بديهـــى ، فانه ليس لنا مصدر طبيعى للعلم سواها .

ب — وان وسيلة تحصيل العلم منها تلك الفطرة .

ج — وأن صفحة الكون مبسوطة أمامنا لا تطوى عنا شيئا من محتوياتها ودلالاتها ، ولا تكف أحدا عن التطلب والتعلم ، واذا كان ذلك هو الواقع البديهى فقد قرره القرآن الكريم بقوله : — (انظروا ماذا فى السموات والأرض) ؟ ، أى يطلب الينا أن نقوم بعمليات مسح عقلى لآماد الكون وآفاقه لنعرف (ماذا فى الســـموات والأرض) ، ومعلوم أن ذلك مطلب رهيب خطير ، فان مفهوم السموات يمتد آفاقا بعد آفاق فى مسافات تحيد الرءوس لذكر أبعادها الى ما لا يمكن ادراك أبعاده ، وتنقطع دونه أدق الوسائل العلمية ، فلن تبلغه يوما من الايام ، (فلا أقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون) ، ولكن الخالق تعالى ما كان ليكلفنا هـــذا التكليف الخطير الشريف الا وهو يعلم أن ما كرمنا به من أهلـــية التعلم كفء له ، (لا يكلف الله نفســـا الا وسعها) ، لا يكلف الله نفســـا الا ما آتاها) .

وإذا كلفنا الله النظر في تلك الآفاق السحيقة والمجاهيل التي لا يعلم كنهها الا هو ، طلب الينا ألا نجاوز مادة الواقع المحس قيد شعرة ولا ما دونها (انظروا ماذا في السموات والأرض) ؟ ، أى انظروا أى شيء في السموات والأرض .. وهو نظر حسي عقلي معا ، وانما يقع الحس والعقل على مادة الكون لا غير ، وما يلابسها من حقائق عقلية ، أما ما وراء مادة الكون ، أى ما عداها ، وما يسمونه الشطحات والتورط فيما لا يناله الحس ولا يضبطه العقل برؤية بديهية أو قانون محسوب بقواعده وأقيسته ، فليس من سنن النظر العلمي الذى دعا اليها النص الكريم .

وقد ذكرنا (ملابسات) المادة ، ونعني بها (حقائق) تلازمها ، ولا تنفك عنها ، ولا يمكن أن ترى المادة مستقلة عنها بحال ، من ذلك . أن المادة تشغل (حيزا) ، ولا بد .. وهذا الحيز بقدر حجمها ، ولا بد .. لا يزيد عنه ولا ينقص ، ولا يتسنى للعقل بحال أن يرى المادة دون أن يراها متلبسة بالحيز كما لا يستطيع أن يرى حيزا ما مستقلا عن المادة بحيث يقول هذا حيز طائر في الجو أو طائرة أو سحابة دون أن يكون ثمت شيء من ذلك ..

فالحيز حقيقة علمية لا شك فيها ، لأن العقل يشهدها ملابسة للمادة . كما تبصر العين شخوص الأشياء العادية ، ولكنه حقيقة لا تدل على ذاتها بنفسها بل تدل عليها المادة .

هذا مثال للحقائق البديهية العلمية التي تلابس المادة ، ويشهدها العقل ملابسة لها ، فاذا قلنا : ان المادة وحدها وما يشهد فيها العقل والحواس من عناصر وخصائص وملابسات هي موضوع (فطرة التعلم) ، واذا قلنا مع ذلك إن الحواس والعقل هما وسيلة تلك الفطرة ، وفيصلها في تمحيض وتحرير ما يستخلص الانسان من حقائق . فقد ألمنا بالأساس الذى لا يعتمد العلم سواه نهجا للمعرفة ، اذ ليس لنا في غير الكون الشاخص للحس والعقل معا معتمد طبيعي للحق .

وبعد فتلك فطرة التعلم ، وذلك مجالها ونهجها .. فهل حققت غايتها من التطابق بين عقل الانسان وحقائق الكون ؟ ذلك ما سنعرض له في المقال التالي ان شاء الله .

---

(١) مما يتسق مع كون البيوت للكن (والاستتار قول النبي محمد عليه الصلاة والسلام (لو أن امرأ طلع عليك بغير اذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه لم يكن عليك جناح) . وقول القرآن (ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم) .

(٢) من شواهد اللغة عندنا – على ذلك أن البدوى يسمى بيئته (الخباء) ومنه خبأ الشيء أى ستره ، والخباء ما يعمل من وبر أو صوف للسكن ، وليس في ذلك ما يتصل بمعاني مدافعة الجو .. ذلك الى أن البيت أصلا مصدر بات يبيت وهو متصل أو ملابس لليل ، وفيه معنى الستر ولما رأى العربي في مسكنه حقيقة الستر الدائم أطلق عليه كلمة بيت ، فصارت اسما له ، كان سدول الليل التي لا تنفذ منها الابصار تفشيه كل آن فلا تقتحمها نظرة فضول بليل أو نهار .. وليس في تلك اللفتات والحركات الفعلية والنفسية ما ينظر الى هجمات جو ، لأن سدول الليل مقصورة على رد عوادى النظر لا عوادى الجو من أى نوع .